

على بحث « القيم والعادات .. وازمة التطور » للدكتور بهاء ابو لبن

تعليق

معظمها الى ابراز العوامل السلبية في نمط الشخصية العربية وانجاهاتها وفيها . ومن امثلة ذلك ما كتبه الدكتور علي الوردي عن شخصية الفرد العراقي ، وما كتبه الدكتور حسن صعب في تحديث العقل العربي ، وما كتبه الدكتور هشام شرابي في دراساته الاخيرة التي لم تظهر في العربية بعد ، وما كتبه صاحب هذا التعليق منذ سنوات عن الشخصية الفهوية في مصر . ويحاول هؤلاء الكتاب ان يصوروا الصورة الايجابية المطلوبة للشخصية في نقلتها عن الانسان التقليدي الى الانسان الحضري الحديث في تشخيصات للنمط الجديد سماه بعضهم بالشخصية ذات سمات معينة او في صورة الشخصية المنتجة او في صورة الشخص العقلاني او في صورة النمط الابداعي المستقبلي او غير ذلك من التشخيصات والتوصيفات لسمات في نمط جديد للشخصية يحقق تكوينه اسافا بين التقدم المادي والتقدم الثقافي في المجتمع .

ولا شك في ان مثل هذه المحاولات الفكرية لها قيمتها ووظيفتها في النقد الذاتي ، وفي محاولة استكشاف جانب من جوانب التخلف في صورته ومظاهره ، وفي مزيد من الوعي بالواقع . لكنها في نفس الوقت خالية من المضمون ومن الالتحام بالواقع التحاماً يحدد موقع العلة الرئيسية ويمكن من توفير الوسائل اللازمة للمواقف الجديدة في التعامل مع الناس والاشياء وافكار ، وغلبة تلك الاستجابات العصرية في مواقف الحياة الجديدة ؟ ولو اخذنا اي قائمة من القوائم ، فاننا قد نجد سماتها في الشخصية التقليدية بالنسبة لمواقف محددة في الحياة : الم ينفتح الفلاح العربي للتجديد والتغيير في زراعته فزرع الخضراوات والفواكه والازهار بعد ان كان مقتصرًا على زراعة الحبوب . من قال انه يميل الى الانجاز وهو يسمى نهارة للحفر والسري والحصاد حتى يجني محصوله . ومن قال انه لم يسع الى السيطرة على بيئته وهو يحفر البئر او يشق القناة ، او يقيم السدود درعا لمخاطر الفيضان في ضوء امكاناته وادواته . ومن قال انه لا يدخر وهو يجمع روث البهائم لاستغلاله كمصدر للوقود ، وارتبطت قيمه بجعل الاقتصاد في استخدام الماء امرا مستحبا حتى في الوضوء للصلاة . واذا كان قد لجأ الى الطلسم والسحر في معالجة المرضى ، فان ذلك يمثل اخر المطاف في مواجهة موقف لم تفلح فيه الوسائل المعروفة في طبه التقليدي . المشكلة الحقيقية القيسم والاتجاهات التي كانت وظيفية في مواجهتها للمواقف والمواقف والمضمون السائد تقليديا اصبحت قاصرة وغير كافية في التحامها ومواجهتها للمضمون والواقع المتطور المعاصر : انها غير ذات كفاءة

يقع بحث الدكتور بهاء ابو لبن المقدم الى هذه الندوة في اطار محاولات المستقبلين بالفكر الاجتماعي للاسهام في مسيرة التقدم في الحياة العربية المعاصرة . ومسيرة التقدم العربية كما حددها تركز على مفهوم التخصير ومستلزماته . وقد ظهرت كتابات متعددة في السنوات الاخيرة حول تشخيص هذه المشكلة في محاولة للتحديث او العصرية او مواجهة تحديات العصر الحديث ، ومسايرة الثورة العلمية والتكنولوجية ، ومعظمها يعالج فكريات وتقاليد الانسان العربي ومدى ملائمتها للحياة المعاصرة الحديثة ومطالبها . واطار الذي يمكن ان تتفق عليه مجمل هذه البحوث هو اننا بصدد وضع جديد في المنطقة العربية نجم عن اختلال في التوازن الاجتماعي، او على الاقل ان المجتمع العربي يحاول ان ينتقل مرحليا من مرحلة من التوازن الذي تضعف فيه مقومات التماسك والتواصل التقليدية مما يجعلها محدودة الفاعلية والوظيفية الى مرحلة منجددة من التوازن ذات مقومات اكثر فاعلية وكفاءة في تحقيق التماسك والحيوية . وقد ادت عوامل عديدة داخلية وخارجية كثيرة الى اهتزاز صورة التوازن التقليدية والى فاعلية مقوماتها وفكرياتها وتقاليدها . . من هنا كان لا بد من مواجهة هذا التحدي على جبهات مختلفة وبأسلوب منسق .

ومن قائل ان مشكلة تجديد الحياة العربية المعاصرة ينبغي ان يتجه الى الانسان وفكرياته، وان التغيير القيمي والثقافي هو المنطلق الاساسي ولجأ هذا الفريق الى تصور هوة ثقافية بين التقدم المادي والتكنولوجي في العالم العربي وبين الواقع الثقافي في القيم والعادات والاتجاهات التقليدية والافتراض في هذا التخلف الثقافي مرتكز على ان التقدم المادي والتكنولوجي قد سبق طريقه بخطوات اسرع بكثير من مقتضيات الفكر والعادات المرتبطة بالتمتع مع معطيات العالم المادي ، وكثيرا ما يضرب المثل في هذا الصدد بتعامل الفلاح مع الجرار الزراعي (التراكور) او تعامل العامل مع الآلات او اهمال الفنيين في صيانة المصنع ، او تدخل العلاقات الشخصية في عملية الادارة ، والجهد المطلوب في هذه الحالة هو تصوير الفكر وتحديث العقل ، واحداث نقلة من الانسان التقليدي الى نمط جديد من الانسان يتسم بخصائص وسمات فكرية وسلوكية تستلزمها « عصرية الفرد » . ومن هنا ظهرت قوائم متنوعة للشخص « العصري » . وقد اورد الدكتور بهاء قائمة الكس انكليس ، و اشار الى قائمة جوناو ميردال وكومار . وهناك دراسات اخرى في هذا المجال وان اختلفت اطارها من الاساندة العرب المستقبلين بالدراسات الاجتماعية تتجه

وفاعلية من حيث مدى هذه القيم والتقاليد في بعدها الزمني او بعدها المكاني ، او في شمولها الاجتماعي او في مقوماتها المادية .

لكن هل الممكن ان يقال ان المشكلة الاساسية في تقدم المنطقة العربية هي مشكلة ثقافية في جملتها . وهل حقيقة قد تطورت الحضارة المادية تطورا سبق التطور الثقافي . وهل يمكن عكس القضية بالقول ان التطور الفكري والقيمي قد تجاوز التقدم الماضي، او على الاقل قد سبقه في بعض المجالات ، ولدى بعض الفئات الاجتماعية ؟ تلك صورة وارادة لطرح المشكلة ؟ ثم اذا كان « تقيين السكان وتدريبهم على خصائص مرغوب فيها . تعارضه متطلبات الواقع وموازناته ، فكيف يمكن تصور المعزز لهذه الخصائص ، بل ان الارتداد عنها امر محتمل ؟ لم بعد القضية قضية القيم والعمادات والاتجاهات باعتبارها شرطا لازما سابقا لتطوير الواقع الحضاري، او ان المقومات المادية هي الشرط اللازم السابق لتطوير الواقع الفكري والقيمي ، وانما هو حزمة او ربطة من الواقع والمعطيات فكرية ومادية تتفاعل مع بعضها في علاقات معينة لتحقيق حالة ذات مظاهر متعددة الجوانب .

ومن هنا فان المسألة ليست مناظرة بين نغلة الانسان التقليدي الى صورة معاصرة وبين نقلة البناء الاجتماعي . ان تقدير الاهمية القصوى للتغيرات البنائية (البنوية) واعتبارها شرطا لازما في التطوير المجتمعي امر لا يمكن تجاهله ولا التقليل من اثره ، لكنه في نفس الوقت ليس كافيا وحده . لا يعيش فرد او فئة في مجتمع الا من خلال بنى ومؤسسات اجتماعية يعيشون من خلالها ويتأثرون بها، ويؤثرون فيها . ولعله من فييل المناشآت البيزنطية ان نقول من الذي ظهر اولا ، ومن هو صاحب التأثير الاغلب في مرحلة معينة وانما نستطيع ان نقول ان اي صورة من صور الحياة الاجتماعية هي محصلة لتفاعل الانسان مع مؤسساته وتأثير المؤسسات فيه . كما نستطيع ان نقول دائما ان الانسان بوعيه وارادته يستطيع التأثير في المؤسسات وتغييرها اذا ما اصطنع لذلك الوسائل والجهود اللازمة لهذا التغيير . ان البنى والمؤسسات الاجتماعية ليست فدرا محتوما كما ان الانسان ليس وافعة او حقيقة جامدة وانما هو عمل ونشاط وخلق ومسئولية وحرية .

المشكلة في التغيير والتطوير والتنمية اذا هي تصورات كلية لتحريك الاوضاع القائمة بعناصرها الانسانية القيمة وعناصرها البنائية المؤسسية . ولا يمكن ان يتم هذا التحريك الا عن طرق ثلاث : مدخلات جديدة ، اعادة لتنظيم العلاقات والتفاعلات بين المعطيات القائمة ، او تحسين لفاعلية المعطيات القائمة وفي معظم الحالات يتطلب الموقف المجتمعي العام استخدام هذه الطرق الثلاث في ضوء الاستغلال الامثل للموارد المتاحة حاليا وعلى المدى الابدع . وفي جميع هذه الطرق تتمثل وحدة الواقع الاجتماعي في مكونات انسانية قيمية ، ومكونات مادية ومؤسسية تنظيمية ليست قضية التطوير اذن هل نبدأ بالقيم او نبدأ بالبنى المؤسسية .

وانما السؤال العملي المطروح هو اذا اردنا ان نصل الى هدف معين او الى مجموعة او « طقم » من الاهداف فما هي مستلزماته الفكرية والسلوكية والانسانية ، وما هي مستلزماته البنائية والمؤسسية . وحتى اذا بدأنا بطرف واحد وهو القيم والاتجاهات فنسال اذا اردنا ان نظورها الى صور معينة فكم يقتضي هذا التطوير من الاسس الموضوعية وما هي الصورة البنائية والمؤسسية الضرورية التي ينبغي ان تلازم وتغذي وتتغذى من هذا الموقف الكلي .

وبهذا يصبح الهدف او مجموعة الاهداف المتبقاة هي الاساس

الذي يتحكم في نوع « الخلطة » المطلوبة من الشروط والوسائل المختلفة فكرية ومؤسسية وذلك في سياق زمني ونسب كميصة وتوصيفات كيفية بحيث يتحقق من تفاعل هذه المكونات الهدف الاجتماعي والانساني . واود ان اؤكد هنا ان عناصر الخلطة وتركيبها وتنظيمها وحجمها ووزنها امور مهمة في احداث الاثر المطلوب ، والا حدثت الاختناقات والاهدار . وعلى سبيل المثال فانه اذا وصف الطبيب لمرضى ان يتناول قرصا من الاقراص المضادة للحيويات (انثيباوتيك) بعد الاكل لمدة اربعة ايام وان يتناول معها اقراص من فيتامين ب ، وان يستريح في المنزل لمدة خمسة ايام ، فاذا اتبع المريض هذه المقومات المختلفة في تسلسلها وكمياتها وشروطها كان احتمال الشفاء كبيرا جدا وكلما فقد شرطا او مقوما قل احتمال. كان يتناول قرصا بدلا من قرصين ، او يتناول قرصين لمدة يومين فقط ، او يتناول الاقراص دون الراحة . . وهكذا . ان عملية التطوير في مقوماتها العلمية ذات وسائل ومقومات يمكن تحديدها ، ولا يمكن اجتياز جزء منها او الافتقار على جانب منها دون الاخر دون اهدار للنتائج ، بل ربما الوصول الى ردة او رد فعل ، كما هو الحال في مثل المريض ، الذي قد تشتد به الحمى اكثر من المرة الاولى نتيجة لعدم اتباع الشروط والمقومات التي وصفها الطبيب ويسلمنا هذا كله الى موضوع الالتزام بشروط التقدم ومستلزماته وما يتطلبه من جهد وتنظيم ومتابعة واستكمال لمقتضياته . لا يمكن ان تمجد وافكح بقيمه وعاداته ومعطياته ، وترغب في نفس الوقت في تطويره وتحقيقه بدائل افضل . لا يمكن ان تحرر المرأة وتعرضها لان تنجب عشرة اطفال، ولا يمكن ان تعلمها وتحرمها من العمل ، وليس من المعقول ان تحمل ساعة ولا تنترم بالوقت ، وليس من المعقول ان تعلم وتكون العلماء ، وان تفرض عليهم سلطة غير سلطة العلم ونتاجه ، وليس من المعقول ان تتصور امكانية للمشاركة الجماهيرية واعداد هائلة تفتقر الى سلاح المشاركة ومهاراتها من قراءة وكتابة . ولعل هذا ما اراد الدكتور بهاء ان يؤكد في مجال الالتزام بمقومات التحضر ، وان انعدام مثل هذا الالتزام يؤدي الى ان النمط السائد للسلوك في كثير من انحاء العالم الغربي بعكس فراغا واسعا بين ما هو كائن ، وبين ما يمكن ان يكون وبين النتاج الفعلي والنتاج الكامن للشعب ، وبين الصور البدوية والصور الحضرية .

صدر حديثا

فكاهيات بلباس الجردان

للشاعر

الياس لحود

منشورات دار الآداب